

وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿٥﴾

﴿ولا يخاف عقباها﴾ أي: عاقبتها وتبعتها كما يخاف كل معاقب من الملوك فيبقى بعض الإبقاء. ويجوز أن يكون الضمير لثمود على معنى: فسواها بالأرض، أو في الهلاك ولا يخاف عقبي هلاكها. وفي مصاحف أهل المدينة والشام فلا يخاف. وفي قراءة النبي ﷺ: ولم يخف. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الشمس فكاننا تصدق بكل شيء طلعت عليه الشمس والقمر»⁽¹⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الليل مكية

وَأَنْبِئْهُمْ إِذَا نَسُوا ﴿١﴾

المغشى إما الشمس من قوله: ﴿والليل إذا يغشاها﴾⁽²⁾ وإما النهار من قوله: ﴿يغشى الليل النهار﴾⁽³⁾ وإما كل شيء يواريه بظلامه من قوله: ﴿إذا وقب﴾⁽⁴⁾.

وَأَلْبَسُوا إِذَا تَجَلَّى ﴿٢﴾

﴿تجلى﴾ ظهر بزوال ظلمة الليل، أو تبين وتكشف بطولع الشمس.

وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٣﴾

﴿وما خلق﴾ والقادر العظيم القدرة الذي قدر على خلق الذكر والأنثى من ماء واحد. وقيل: هما آدم وحواء. وفي قراءة النبي ﷺ والذكر والأنثى، وقرأ ابن مسعود: والذي خلق الذكر والأنثى، وعن الكسائي: وما خلق الذكر والأنثى، بالجر على أنه بدل من محل ما خلق بمعنى: وما خلقه الله. أي: ومخلوق الله الذكر والأنثى. وجاز إضمار اسم الله لأنه معلوم لانفراده بالخلق إذ لا خالق سواه. وقيل: إن الله لم يخلق خلقاً من نوي الأرواح ليس بذكر ولا أنثى، والخنثى وإن أشكل أمره عندنا فهو عند الله غير مشكل معلوم بالذكورة أو الأنوثة، فلو حلف بالطلاق أنه لم يلق يومه نكراً ولا أنثى وقد لقي خنثى مشكلاً كان خائناً؛ لأنه في الحقيقة إما نكراً وأنثى وإن كان مشكلاً عندنا.

إِذْ سَخَّرَ لَنُوحٍ ﴿٤﴾

﴿سختي﴾ جمع سختت أي: إن مساعيكم أشتات مختلفة وبيان اختلافها فيما فصل على أثره.

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾

﴿أعطى﴾ يعني: حقوق ماله. ﴿واتقى﴾ الله فلم يعصه.

والتسوية: النقص والإخفاء بالفجور وأصل نسي نسس كما قيل: في تقضض تقضى، وسئل ابن عباس عنه فقال: اتقراً قد أفلح من تزكى وقد خاب من حمل ظملاً. وأما قول من زعم أن الضمير في زكى ونسى الله تعالى وأن تانيث الراجع إلى من لانه في معنى النفس فمن تعكيس القدرية الذين يوزكون على الله قدرًا هو بريء منه ومتعالٍ عنه، ويحيون لياليهم في تحمل فاحشة ينسبونها إليه.

فإن قلت: فإين جواب القسم؟ قلت: هو محنوف تقديره ليدمنن الله عليهم أي: على أهل مكة، لكنبيهم رسول الله ﷺ كما دمدن على ثمود؛ لأنهم كذبوا صالحًا، وأما قد أفلح من زكاهما فكلام نابح لقوله: فالههما فجورها وتقواها على سبيل الاستطراد وليس من جواب القسم في شيء.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾

الباء في ﴿بطغواها﴾ مثلها في كتبت بالقلم، والطغوى من الطغيان. فصلوا بين الاسم والصفة في فعلى من بنات الياء بأن قلبوا الياء وأوا في الاسم وتركوا القلب في الصفة فقالوا: امرأةٌ خزيًا وصدبًا يعني: فعلت التكنيب بطغيانها، كما تقول: ظلمني بجرأته على الله، وقيل: كذبت بما أوعدت به من عذابها ذي الطغوى، كقوله: فاهلكوا بالطاغية. وقرأ الحسن: بطغواها بضم الطاء، كالحسنى والرجعى، في المصادر.

إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾

﴿إذ انبعث﴾ منصوب بكذبت أو بالطغوى. و﴿أشقاها﴾ قدار بن سالف، ويجوز أن يكونوا جماعة، والتوحيد لتسويتك في أفعال التفضيل إذا أضفته بين الواحد والجمع والمنكر والمؤنث. وكان يجوز أن يقال: أشقوها كما تقول أفاضلهم. والضمير في ﴿لهم﴾ يجوز أن يكون للأشقين، والتفضيل في الشقاوة لأن من تولى العقر وباشره كانت شقاوته أظهر وأبلغ.

فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾

و﴿ناقة الله﴾ نصب على التحنير كقولك الأسد الأسد والصبي الصبي بإضمار نروا أو احزنوا عقرها. و﴿وسقياها﴾ فلا تزروها عنها ولا تستأثروا بها عليها. فكَذَّبُوهُ فَعَزَّوهُمَا فَدَمَرْنَهُمْ عَلَيْهِمْ رَيْبُهُمْ فَبِئْسَ لَهَا فِئْزَمًا ﴿١٤﴾

﴿فكذبوه﴾ فيما حذرهم منه من نزول العذاب إن فعلوا. ﴿فدمدم عليهم﴾ فاطبق عليهم العذاب وهو من تكرير قولهم: ناقة مدمومة إذا ألبسها الشحم. و﴿بئسبئهم﴾ بسبب ذنبهم وفيه إنذار عظيم بعاقبة الذنب فعلى كل منذب أن يعتبر ويحذر. ﴿فسواها﴾ الضمير للدمدمة أي: فسواها بينهم لم يفلت منها صغيرهم ولا كبيرهم.

(3) سورة الأعراف، الآية: 54.

(4) سورة الفلق، الآية: 3.

(1) نكده الثعلبي وابن مردويه في تفاسيرهم، الزيلعي 4/219.

(2) سورة الشمس، الآية: 4.

وَمَدَدًا بِأَلْسِنٍ ﴿٦﴾

وَمَا يُشِئُ عَنْهُ مَلَكٌ إِذَا رَوَّدَكَ ﴿١١﴾

﴿وما يغني عنه﴾ استقمام في معنى الإنكار أو نفي ﴿تردّي﴾ تفعل من الردى وهو الهلاك يريد الموت، أو تردى في الحفرة إذا قبر، وتردّى في قعر جهنم.

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿٧﴾

﴿إن علينا للهدى﴾ إن الإرشاد إلى الحق واجب علينا بنصب الدلائل وبيان الشرائع.

وَلَا لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿١٧﴾ فَأَنْذَرُكُمْ نَارًا تَلْفَلُحُ ﴿٧﴾

﴿وإن لنا للآخرة والأولى﴾ أي: ثواب الدارين للمهتدي كقوله: ﴿وأتيناها أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ (٤) وقرأ أبو الزبير تنظي.

لَا يَسْتَلْبِئُ إِلَّا الْأَنْفُسَ ﴿٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١١﴾ وَسَيَجْزِيهَا الْآتِقَىٰ ﴿٧﴾

﴿فإن قلت: كيف قال: ﴿لا يصلها إلا الأشقي﴾

وسيجزيها الاتقى؟ وقد علم أن كل شقي يصلها (٥)، وكل تقي يجزيها، لا يختص بالصلى اشقى الأشقياء ولا بالنجاة اتقى الأتقياء. وإن زعمت أنه نكر النار فأراد ناراً بعينها مخصوصة بالأشقى فما تصنع بقوله: ﴿وسيجزيها الاتقى﴾ (٥) فقد علم أن أفسق المسلمين يجذب تلك النار المخصوصة لا الاتقى منهم خاصة؛ قلت: الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين فأريد أن يبالغ في صفتيها المتناقضتين. فقيل: الأشقى وجعل مختصاً بالصلى كان النار لم تخلق إلا له.

﴿ووصق بالحسنى﴾ بالخصلة الحسنة وهي الإيمان، أو بالملة الحسنى وهي ملة الإسلام، أو بالمثوبة الحسنى وهي الجنة.

فَنَسِيرٌ لِّبُئْرٍ ﴿٧﴾

﴿فنسيره لليسرى﴾ فسنيهؤه لها، من يسر الفرس للركوب إذا أسرجها وأجمها، ومنه قوله عليه السلام كل ميسر لما خلق له (١). والمعنى: فسئلطف (٢) به ونوفقه حتى تكون الطاعة أيسر الأمور عليه وأهونها. من قوله: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾.

أَلَيْ لَمْ يَخْلُقْ بِمِثْلِهَا فِي الْبَلَدِ ﴿٨﴾ وَتَمُودَ الَّذِي جَاءُوا بِالصَّخَرِ بِالْوَادِ ﴿٩﴾

﴿ولستغنى﴾ وزهد فيما عند الله كأنه مستغن عنه فلم يتقه، أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الجنة لأنه في مقابلة واتقى.

فَنَسِيرٌ لِّبُئْرٍ ﴿٧﴾

﴿فنسيره لليسرى﴾ فسئلطفه ومنعه اللطاف حتى تكون الطاعة أسعر شيء عليه وأشدّه. من قوله: ﴿يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء﴾ (٣) أو سمي طريقة الخير باليسرى لأن عاقبتها اليسر، وطريقة الشر العيسرى لأن عاقبتها العسر أو أراد بهما طريقي الجنة والنار، أي: فسئهبهما في الآخرة للطريقين، وقيل: نزلنا في أبي بكر رضي الله عنه. وفي أبي سفيان بن حرب.

= يشوى فوق الجمر أو على العقى أو على التتور فليس بمصلى، وهذا للتفسير بعينه نص عليه الزمخشري ونقله عن أهل اللغة في سورة الغاشية أيضاً، وأنا عرفت عليه في كتبهم، فإذا عرفت معنى التصلية لغة وأنها أشد أنواع الإحراق بالنار، وفي علمك أن الناس عند أهل السنة ثلاثة أصناف: مؤمن صالح فائز، ومؤمن عاص وكافر، وأن المؤمن الفائز يمر على النار فيطفئ نوره لهبها، ولا يؤلم بمسها البتة، وإنما يردّها تحلة القسم، والعاصي إن شاء الله تعنيبه ومجازاته، فإنما يعذب على وجه النار في الطبقة الأولى باتفاق، حتى أن منهم من تبلغ النار إلى كعبه، وأشدّهم من تبلغ النار إلى موضع سجوده فيحسه ولا يعذب أحد من المؤمنين بين أطبقها البتة بوعد الله تعالى، والكافر هو المعذب بين أطبقها تبين لك أن النار لا يصلها أي: يعذب بين أطبقها كما علمت تفسيره في اللغة إلا الكافر، وهو الأشقى؛ لأن المؤمن العاصي لا يبلغ مبلغه في الشقاء، وإن المؤمن الفائز هو الاتقى بالنسبة إلى المؤمن العاصي يجذب النار بالكليّة، لأن روده تحلة القسم لا يصل إليه مسها ولا المها، وأن المؤمن العاصي الذي بالاتقى ولا بالأشقى لا يصلها ولا يجزيها بالكليّة؛ لأن روده تحلة القسم لا يعذب فيها إلا بالصلى، فهذا أحسن ما حملت الآية عليه، لكن إنما ينزل على جادة السنة، وأما الزمخشري فينصرف عنها، فلا جرم أنه في عهدة الجواب يفكر ويقدر، والله أعلم.

(6) سورة الليل، الآية: 17.

(1) رواه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: موعظة المحبت عند القبر (الحديث رقم: 1362)، ومسلم في كتاب القدر بكيفية الخلق (الحديث رقم: 6، 2647).

(2) قال أحمد: لا يطيل لسانه مهنا على أهل السنة؛ ولكن قصره الحق فتراه يؤول الكلام بل يعطله؛ لأنه يجعله ما لا يحتمله، وعلى كلامه في أمثاله روعة السارق الخائف.

(3) سورة الأنعام، الآية: 125.

(4) سورة العنكبوت، الآية: 27.

(5) قال أحمد: لا شك أن السائل بنى سؤاله على التمسك بمفهوم الآية لورودها بصيغة التخصيص، فحاصل جواب الزمخشري أن التخصيص مهنا لفائدة أخرى غير النفي، هما عدا المخصص وتلك الفائدة المقابلة، وحيث تمحض لك السؤال والجواب فهو يلاحظ نظر الشافعي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿قل لا أجد فيما أوحى إليّ محرماً على طاعم يطعمه﴾ فإنه لم يقل بمفهوم حصرها وحملها على أن الحصر لفائدة المقابلة بالرّد لأحكام الجاهلية لا لنفي ما عدا المحصور، على أن الزمخشري إنما ضيق عليه الخناق في هذه الآية حتى التزم ورود السؤال المنكور التفاتاً إلى قاعته الفاسدة، وحذره أن تنقض ويأبى الله إلا نقضها ورفضها، وإذا نزلت الآية على قواعد أهل السنة وضح لك ما قتله، فتقول: المصلى في اللغة أن يحفروا حفيراً فيجمعوا فيه جمرأ كثيراً ثم يعمروا إلى شاة فيبسوها وسطه بين أطبقها، فأما ما

الناس ضحى ﴿³﴾ وقيل: أريد بالضحى النهار بيانه قوله: إن يأتيهم بأسنا ضحى في مقابلة بيئاتنا.

وَأَلَّيْ إِذَا سَجِنَ ﴿٦﴾

﴿سجى﴾ سكن وركد ظلما، وقيل: ليلة ساجية، ساكنة الريح، وقيل: معناه سكنون الناس والأصوات فيه. وسجا البحر سكنت أمواجه، وطرف ساج ساكن فاتر.

مَا وَدَعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴿٧﴾

﴿ما ودعك﴾ جواب القسم ومعناه: ما قطعك قطع المودع. وقرئ: بالتخفيف يعني: ما تركك. قال:

ثم ودعنا آل عمرو وعامر فرانس أطراف المثقفة السمر والتوبيخ: مبالغة في الودع لأن من ودعك مفارقا فقد بالغ في تركك. روي أن الوحي قد تأخر عن رسول الله ﷺ أياما فقال المشركون: إن محمدا ودعه ربه وقلاه⁽⁴⁾. وقيل: إن أم جميل امرأة أبي لهب قالت له: يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك فنزلت⁽⁵⁾. حذف الضمير من قلى كحذفه من الذكارات في قوله: والذكارين الله كثيرا. والذكارات يريد والذكارات ونحوه. فأوى فهدى فأغنى وهو اختصار لفظي لظهور المحذوف.

وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴿٨﴾

فإن قلنت: كيف اتصل قوله: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ بما قبله؟ قلنت: لما كان في ضمن نفي التوديع والقلى أن الله موصلك بالوحي إليك⁽⁶⁾، وأنت حبيب الله ولا ترى كرامة أعظم من ذلك ولا نعمة أجل منه، أخبره إن حاله في الآخرة أعظم من ذلك وأجل، وهو السبق والتقدم على جميع أنبياء الله ورسله وشهادة أمته على سائر الأمم ورفع درجات المؤمنين وإعلاء مراتبهم بشفاعته وغير ذلك من الكرامات السننية.

وَأَسْرَفَ يَرْسَنَ ﴿٩﴾

﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ موعده شامل ولما أعطاه في الدنيا من الفلج والظفر بأعدائه يوم بدر ويوم فتح مكة وبخول الناس في الدين أفواجا، والغلبة على قريظة والنضير وأجلاتهم وبث عساكره وسراياه في بلاد العرب وما فتح على خلفائه الراشدين في أقطار الأرض من المدائن وهدم بآيديهم من ممالك الجبابرة وأنهبهم من كنوز الأكاسرة، وما قذف في قلوب أهل الشرق والغرب من الرعب وتهيب الإسلام وفشوق الدعوة واستيلاء المسلمين، ولما ادخر له من الثواب الذي لا يعلم كنهه إلا الله. قال ابن

وقيل: الأتقى وجعل مختصا بالنجاة كان الجنة لم تخلق إلا له. وقيل: هما أبو جهل، أو أمية بن خلف، وأبو بكر رضي الله عنه.

أَلَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٠﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْرَى ﴿١١﴾

﴿يتزكى﴾ من الزكاة أي: يطلب أن يكون عند الله زاكيا لا يريد به رياء ولا سمعة أو يتفعل من الزكاة.

فإن قلنت: ما محل يتزكى؟ قلنت: هو على وجهين إن جعلته بدلًا من يؤتى فلا محل له لأنه داخل في حكم الصلاة، والصلاة لا محل لها، وإن جعلته حالا من الضمير في يؤتى فمحله النصب.

إِلَّا آيْمَانًا وَبِهِ رُؤْيُ الْأَعْيُنِ ﴿١٢﴾

﴿ابتغاء وجه ربه﴾ مستثنى من غير جنسه، وهو النعمة أي: ما لأحد عنده نعمة إلا ابتغاء وجه ربه. كقولك: ما في الدار أحد إلا حمرا. وقرأ يحيى بن وثاب: إلا ابتغاء وجه ربه بالرفع، على لغة من يقول: ما في الدار أحد إلا حمرا. وأنشد في اللغتين قول بشر بن أبي حازم:

أضحت خلاة قفارا لا أنيس بها إلا الجائر⁽¹⁾ والظلمان تختلف

وقول القائل:

وبلدة ليس بها أنيس إلا اليعاقير وإلا العيس

ويجوز أن يكون ابتغا وجه ربه مفعولا له على المعنى، لأن معنى الكلام: لا يؤتى ماله إلا ابتغاء وجه ربه لا لمكافأة نعمة.

وَأَسْرَفَ يَرْسَنَ ﴿١٣﴾

﴿ولسوف يرضى﴾ موعده بالثواب الذي يرضيه ويقر عينه. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الليل أعطاه الله حتى يرضى، وعافاه من العسر ويسر له اليسر»⁽²⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الضحى مكية

وَأَضْحَى ﴿١٤﴾

المراد بالضحى: وقت الضحى وهو صدر النهار حتى ترتفع الشمس وتلقى شعاعها. وقيل: إنما خص وقت الضحى بالقسم لأنها الساعة التي كلم فيها موسى عليه السلام وألقي فيها السحرة سجدا، لقوله: ﴿وإن يحشر

(1) الجائر: ولد العقرة الوحشية.

(2) نكره الثعلبي والواحدى وابن مردويه في تفسيرهم الزيلعي 4/224.

(3) سورة طه، الآية: 59.

(4) نكره ابن مردويه في تفسيره، الزيلعي 4/228.

(5) رواه البخاري في كتاب: التفسير سورة الضحى باب: ﴿ما ودعك ربك وما قلى﴾ (الحديث رقم: 4950) ومسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين (الحديث رقم: 115 - 1797).

(6) قال أحمد: وإخراج أهل الكباثر من النار بشفاعته مضاف إلى ذلك.